عليه السلام
عفو يوسف
عن إخوته

عليه السلام

عفو يوسف

عن إخوته

عفوُ يوسفَ عليهِ السّلامُ عنْ إخوتِهِ

العفوُ:

العَفْوُ منْ مكارمِ الأخلاقِ السّاميةِ، والعفوُ والتّسامحُ خُلُقانِ كريمانِ تحتاجُ إليهِمَا النّفسُ البشريّةُ لِتتخلّصَ منْ كلِّ الشّوائبِ الَّتي قدْ تَعلَقُ في القلبِ إثرَ الأذى، ولِيَنعمَ الأفرادُ بالخيرِ والحبِّ وانشراحِ الصّدرِ. ويتحقَّقُ هذانِ الخُلُقانِ بِطولِ الصّبرِ وكظمِ الغيظِ واحتسابِ الأجرِ. ولا ريب أنَّ تغليبَ العفوِ والتّسامحِ على العقابِ ينجّي الأفرادَ منَ المنازعاتِ الحادّةِ الَّتي قدْ تنشأُ بينَهُم.

عناصرُ الموضوعِ:

01	نعمةِ الإخوانِ.
02	يوسفُ عليهِ السّلامُ نموذجٌ للصّبرِ على الابتلاءاتِ.
03	أحوالُ يوسفَ عليهِ السّلامُ بعدَ التّمكينِ.
04	مِنْ آثارِ لطفِ اللهِ بيوسفَ عليهِ السّلامُ.
05	اللّطيفُ منْ أسماءِ اللهِ الحُسنى.
06	لطفُ اللهِ في مَعنيَيْن.
07	اضطرارُ إخوَةِ يوسفَ إليهِ.
08	كيفيّةُ تعامُلِ يوسفَ معَ إخوتِهِ.
09	يكشفُ يوسفُ لأخيهِ شخصيَّتَهُ سرًّا.
10	حيلةُ يوسفَ.
11	تمسُّكُ يوسفَ بإبقاءِ أخيهِ عندَهُ.
12	زيادةُ همِّ يعقوبَ عليهِ السّلامُ بفقدِ ولدَيْهِ.
13	عودةُ إخوَةِ يوسفَ وكشفُهُ عنْ نفسِهِ.
14	عفوُ يوسفَ عنْ إخوتِهِ.
15	وصولُ أبوَيْهِ إلى مصرَ وتحقُّقُ رؤياهُ.
16	مثالٌ على إخوةٍ جاهلينَ وإخوةٍ متآزرينَ.

نعمةُ الإخوانِ:

نِعمُ اللهِ الكريمِ سبحانَهُ كثيرةٌ علَيْنا، إلَّا إنَّنا كبشرٍ لا نَنظرُ إلى ما نمتلكُهُ، بلْ نضعُ ما لا نمتلكُهُ نُصْبَ أَعيُنِنا منْ تَمنّياتِ قلوبِنا واشتِهاءِ نفوسِنا، ثمَّ نبكي لأنَّنا لم نصلْ إلى ما نريدُ ونرتجي!

ومنْ غرابةِ أمرِ الإنسانِ أنّهُ يتركُ الاستمتاعَ ببعضِ النِّعمِ الّتي رزقَهُ اللهُ إيّاها، ويخسرُ وقتَهُ وعمرَهُ في السّعيِ وراءَ هدفٍ آخرَ ربَّما لنْ يصلَ إليهِ لأنَّهُ ليسَ منْ نَصيبِهِ.

هناكَ نِعَمٌ خلقَها اللهُ تعالى في العبدِ، لكنَّهُ لا ينظرُ إليها على أنّها رزقٌ، بلْ وكأنَّها حقٌّ يَملكُهُ، ومنْ هذهِ النِّعمِ: السّمعُ، البصرُ، النّطقُ، العقلُ، الصّحّةُ، القوامُ؛ إذ قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [سورة التين:4]، وقالَ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾﴾ [سورة العاديات:6]؛ لعلمِهِ سبحانَهُ بنفوسِ خَلْقِهِ.

وهناكَ نِعَمٌ قريبةٌ منّا، نِعَمٌ تَركْنا الاستمتاعَ بها وبِوجودِها لانشغالِنا في أمورٍ أخرى، منها: الرّزقُ، والمالُ، والجاهُ، والعلمُ، واللّهوُ، واللَّعبُ. أيضًا منْ هذهِ النِّعَمِ نعمةُ الأُخوَّةِ الَّتي قد لا يَعي بعضُ النّاسِ قيمَتَها، فهلْ نَدري حقًّا قيمةَ الأخِ والأختِ، أمْ أنَّ جهلَنا وسرعةَ انفعالِنا وسوءَ تقييمِنا يدفعُ العلاقةَ بينَنا إلى التّدهورِ عندَ أيِّ منعطفٍ؟ هلْ تكبُرُ الفجوةُ بينَ الإخوةِ

كلّما كبروا وكبرَتْ مصالِحُهُم وزادَ عددُ أولادِهِم لتبقى بينهمُ المصالحُ الضيّقةُ والمنافعُ المؤقَّتةُ والمشكلاتُ المكَدِّرةُ، مع أنَّ العكسَ هوَ ما يجبُ أن تكونَ عليهِ الحالُ؟

نَنشأُ أطفالًا في غرفةٍ واحدةٍ، فنلعبُ في بيتٍ واحدٍ وفِي القريةِ نفسِها، نذهبُ إلى المدرسةِ معًا ونرجعُ معًا، نأكلُ منْ مائدةٍ واحدةٍ، وربَّما نمْنَا في فراشٍ واحدٍ أيّامَ طفولتِنا، ثمَّ نكبرُ وتكبرُ الأحلامُ والمسؤوليّاتُ والطّموحاتُ، نُنهي المدرسةَ ومنْ ثمَّ الجامعةَ، وبعدها تأتي الوظيفةُ، ثمَّ نتزوّجُ وننجبُ.

تبقى أيّامُ الطفولةِ حاضرةً في الذّاكرةِ بقوّةٍ، محفورةً في القلبِ بكلِّ تفاصيلِها الجميلةِ، وللأخوَةِ منْ ذلكَ نصيبٌ.

وفِي كلِّ مرحلةٍ، نزدادُ بُعدًا عنْ بَعضنا، ليزدادَ شعورُنَا معَ الأيّامِ بِأنَّنا نفقدُ شيئًا جميلًا.

لذلكَ نجدُ المشكلاتِ بينَ الإخوةِ والأخواتِ في زمانِنا هذا كثيرةً ومتنوِّعةً، وقليلونَ مَنْ يأتونَ للصُّلحِ ويرضخونَ لهُ، وقليلونَ مَنْ يسامحونَ ويتنازلونَ، وقدْ تجِدُ مَن يسامحُ ويعفو، لكنَّهُ يلمِّحُ أو يصرِّحُ بأنَّهُ متنازِلٌ عنْ حقِّهِ في الدُّنيا، لا في الآخرةِ، ويسألُ اللهَ أن يذلَّ مَنْ ظَلَمَهُ، ويعذِّبَهُ؛ لشدَّةِ

تأثُّرِهِ بالظُّلمِ الَّذي وقعَ عليهِ، لكنَّ ذلكَ لا يفضي إلّا إلى همٍّ وغمٍّ وضيقِ صدرٍ.

لذا لا بدَّ مِنْ إيجادِ علاجٍ لهذهِ الآلامِ، لآلامِ كلِّ شخصٍ تعرَّضَ للظّلمِ في حياتِهِ، ظلمٍ آلَمَهُ نفسيًّا وعضويًّا، ولا يزالُ مسبِّبهُ يسرحُ ويمرحُ ويعيشُ حياةً طبيعيّةً.

وفي هذا السّياقِ، سنستعرضُ ما حصلَ معَ نبيِّ اللهِ يوسفَ عليهِ السّلامُ منْ أقربِ النّاسِ إليهِ، وكيفَ كانتْ حياتُهُ بعدَ ذلكَ، وكيفيّةَ تعامُلِهِ معَ هؤلاءِ النّاسِ.

يوسفُ عليهِ السّلامُ نموذجٌ للصّبرِ على الابتلاءاتِ

قدْ ضربَ الأنبياءُ -رضوانُ اللهِ تعالى عليهم- المثلَ الكبيرَ في العفوِ، فقصَّةُ يوسفَ -عليه السّلامُ- من أعجبِ القصصِ، ومنَ الشّواهدِ الواضحةِ في القرآنِ الكريمِ، فقدْ عفا عليهِ السّلامُ عنْ إخوَتِهِ عفوًا كَتَبَهُ اللهُ في كتابِهِ.

لقدْ ضربَ يوسفُ -عليهِ السّلامُ- أروعَ الأمثلةِ في التّعامُلِ معَ الأخوَةِ الَّذينَ جفوهُ وعادوهُ، فهوَ الَّذي لقيَ منْ إخوتِهِ مِنَ العداوةِ والكيدِ والظّلمِ الشَّيءَ الكثيرَ.

لقدْ ظَلمَ إخوةُ يوسفَ يوسفَ، وحسدوهُ حسدًا كبيرًا، ظلموهُ وأهانوهُ، ورموا بهِ في بئرٍ سحيقةٍ، وبيعَ كما يباع العبيدُ، وكذبوا على أبيهِم حينَ جاؤوا إليهِ بقميصِ يوسفَ وعليهِ الدّمُ مُدَّعينَ أنَّ الذّئبَ قدْ أكلَهُ، فكانوا سببًا في غربتِهِ عنِ الأهلِ والوطنِ وشقائِهِ في طفولتِهِ البريئةِ وشبابِهِ.

أحوالُ يوسفَ عليهِ السّلامُ بعدَ التَّمكينِ

دارتِ الأيّامُ ومرَّتِ السّنواتُ، وشاءَ اللهُ -جلَّ وعلا- ليوسفَ أنْ يُمكَّنَ في الأرضِ، وينتقلَ منْ حياةِ السّجنِ والرّقِّ إلى حياةِ العزِّ والمُلكِ. قدَّرَ اللهُ لهُ أنْ يتبوَّأَ منصبًا أو يعتليَ رتبةً، ويملكَ خزائنَ الأرضِ.

جاءتِ الفرصةُ سانحةً بينَ يديهِ وهوَ متمكِّنٌ في منصبِهِ الكبيرِ على خزائنِ مصرَ؛ إذْ جاءَهُ مَنْ ظلموهُ ولم يعرفوهُ، لكنَّهُ عرفَهُم.

تاريخٌ كلُّهُ أحزانٌ وابتلاءاتٌ ومواجعُ وصبرٌ كصبرِ الجبالِ.

منْ آثارِ لطفِ اللهِ بيوسفَ عليهِ السّلامِ

تذكَّرَ يوسفُ إخوتَهُ الَّذينَ أخذوهُ منْ أبيهِ وآلموا الأبَ بإبعادِ الولدِ عنهُ، وآلموا الابنَ بإبعادِهِ عنْ أبيهِ، وآلموا الابنَ الأصغرَ

بإبعادِ أخيهِ يوسفَ عنهُ؛ إذْ أخذوهُ وألقوهُ في غيابةِ الجبِّ من دونِ شفقةٍ ولا رحمةٍ، وتسبَّبوا في بيعِهِ واستعبادِهِ واستذلالِهِ، وفي أنَ يكونَ خادمًا، وأنْ يدخلَ السّجنَ، ومعَ كلّ هذا قالَ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [سورة يوسف:100].

في كلُّ المآسي الّتي مرَّتْ على يوسفَ بسببِ إخوتِهِ، كانَ اللهُ -عزَّ وجلَّ- اللّطيفَ والمُعينَ، فَحِينَ تَتَتَابَعُ الْكَوَارِثُ وَالنَّكَبَاتُ، وَتَتَفَاقَمُ الْأَزَمَاتُ وَالمُشْكِلَاتُ، وَتَزْدَادُ الْأَخْطَارُ وَالمَخَاوِفُ؛ فَلَا مَلْجَأَ إِلَّا إِلَى اللهِ تَعَالَى، وَلَا مَفْزَعَ إِلَّا إِلَى عِبَادَتِهِ سُبْحَانَهُ، وَلَا سُلْوَانَ إِلَّا فِي كِتَابِهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَفِي كِتَابِهِ أَسْمَاؤُهُ وَصِفَاتُهُ وَأَفْعَالُهُ الَّتِي مَنْ أَدْمَنَ عَلَى مُطَالَعَتِهَا وَفَهْمِهَا امْتَلَأَ قَلْبُهُ بِالْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ، فَزَادَ تَوَكُّلُهُ، وَتَبَدَّدَتْ مَخَاوِفُهُ، فَوَاجَهَ الْأَخْطَارَ بِعَزْمٍ وَثَبَاتٍ.

اللّطيفُ منْ أسماءِ اللهِ الحُسنى

وَمِنْ أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى اللَّطِيفُ، وَمِنْ صِفَاتِهِ سُبْحَانَهُ لُطْفُهُ بِعِبَادِهِ، وَقَدْ كُرِّرَ ذِكْرُ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ؛ لِيَرْكَنَ العبدُ إِلَى اللهِ تَعَالَى، وَيَطْمَئِنَّ لِلُطْفِهِ سُبْحَانَهُ، مَهْمَا عَظُمَتِ الْكُرُوبُ وَالشَّدَائِدُ، وَازْدَادَتِ الْأَخْطَارُ وَالْمَخَاوِفُ؛ ذَلِكَ أَنَّ عِلْمَ الْمُؤْمِنِ بِلُطْفِ اللهِ تَعَالَى بِهِ يُعِينُهُ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ.

لطفُ اللهِ في معنَيَيْن

يَـدُورُ لُطْفُـهُ سُـبْحَانَهُ حـولَ مَعْنَيَيْـنِ عَظِيمَيْـنِ يَحْتَـاجُ إليهِمَـا الْمُؤْمِـنُ، المعنى الأوّلُ: أَنَّ عِلْمَـهُ سُـبْحَانَهُ كانَ دقيقًا حتَّى أَدْرَكَ السَّـرَائِرَ وَالضَّمَائِـرَ وَالْخَفَايَـا، وَالْمَعْنَـى الثَّانِـي: أَنَّـهُ يُوصِـلُ إلـى عِبَـادِهِ الْمُؤْمِنِيـنَ مَصَالِحَهُـمْ، وَيَدْفَـعُ عَنْهُـمْ مَـا أَهَمَّهُـمْ مِـنْ أَخْطَارِهِـمْ، بِطُـرُقٍ لَا يَشْـعُرُونَ بِهَـا وَلَا يَتَوَقَّعُونَهَـا.

وَكَـمْ فِـي هَذَيْـنِ الْمَعْنَيَيْـنِ مِـنْ طُمَأْنِينَـةٍ لِقُلُـوبِ الْمُؤْمِنِيـنَ، وَرَبْـطٍ عَلَيْهَـا، وَتَثْبِيـتٍ لَهَـا!

وَفِـي الْمَعْنَـى الْأَوَّلِ آيَـاتٌ عِـدَّةٌ تَـدُلُّ عَلَـى دِقَّـةِ عِلْـمِ اللـهِ تَعَالَـى، منهـا قولُـهُ تعالـى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣﴾ [سورة الأنعام:102-103]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾ [سـورة الملـك:13-14].

وَأَمَّـا الْمَعْنَـى الثَّانِـي لِلُطْفِـهِ سُـبْحَانَهُ، وَهُـوَ إِيصَـالُ الْمَصَالِـحِ لِعِبَـادِهِ بِطَرِيقَـةٍ لَا يَشْـعُرُونَ بِهَا وَلَا يَتَوَقَّعُونَهَا؛ فَجَـاءَ فِي قِصَّـةِ يُوسُـفَ عَلَيْـهِ السَّـلَامُ أَنَّـهُ أُلْقِـيَ فِـي الْجُـبِّ وَهُـوَ مَظِنَّـةُ الْهَلَكَـةِ،

ثُمَّ بِيعَ عَبْدًا وَهَذَا مَظِنَّةُ الِاسْتِمْرَارِ فِي الْعُبُودِيَّةِ، وَقَضَاءِ الْعُمْرِ فِي خِدْمَةِ مَنِ اشْتَرَوْهُ، ثُمَّ اتُّهِمَ بِامْرَأَةِ الْعَزِيزِ فَسُجِنَ، وَهَذَا مَظِنَّةُ الْبَقَاءِ فِي السِّجْنِ إِلَى الْمَوْتِ؛ لِقُوَّةِ الْعَزِيزِ وَتَمَكُّنِهِ، وَلَوَ نَجَا يُوسُفُ مِنْ بَعْضِهَا، لَنْ يَنْجوَ مِنْ جَمِيعِهَا؛ فَجُبٌّ ثُمَّ رِقٌّ ثُمَّ سِجْنٌ، وَلَكِنَّ أَلْطَافَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى غَيْرِ حِسَابَاتِ الْبَشَرِ؛ إِذْ جَعَلَ ابْتِلَاءَاتِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ السُّلَّمَ ليزدادَ إيمانًا وترتفعَ مرتبتُهُ، وهذا ما أوصلَهُ إلى الْمَجْدِ وَالْعَلْيَاءِ، وَالتَّمْكِينِ فِي الْأَرْضِ؛ إِذْ بِرَمْيِهِ فِي الْجُبِّ نَقَلَتْهُ الْقَافِلَةُ مِنَ مَكَانِهِ فِي الصَّحْرَاءِ إِلَى الْمَدِينَةِ الَّتِي فيهَا قَصْرُ الْمَلِكِ، وَبِبَيْعِهِ رَقِيقًا وَصَلَ إِلَى بَيْتِ الْعَزِيزِ، وَبِفُتونِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ بِهِ وصَلَ إِلَى السِّجْنِ، وَهُوَ الْعَتَبَةُ الْأَخِيرَةُ لِيَصِلَ إِلَى الْمَلِكِ عَنْ طَرِيقِ تَعْبِيرِ رُؤْيَاهُ بَعْدَ أَنْ عَبَّرَ لِلسَّجِينَيْنِ رُؤْيَاهُمَا.

وَفِي هَذِهِ السِّلْسِلَةِ مِنَ الابْتِلَاءَاتِ الَّتِي يَكْتَنِفُهَا لُطْفُ اللهِ تَعَالَى وَيُحِيطُ بِهَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، بَلَغَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْمَنْزِلَةَ، وَجُعِلَ عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ، فَجَعَلَ سُبْحَانَهُ ابْتِلَاءَاتِ يُوسُفَ مُمَهِّدَاتٍ لِرِفْعَةِ مَنْزِلَتِهِ، وَعُلُوِّ مَكَانَتِهِ؛ وَذَلِكَ بِلُطْفِهِ سُبْحَانَهُ إِذْ لَمْ يَشْعُرْ يُوسُفُ بِذَلِكَ، وَلَا شَعَرَ بِهِ إِخْوَتُهُ الَّذِينَ مَكَرُوا بِهِ، فَأَحْوَجَهُمُ اللهُ إليهِ لَمَّا ظلموهُ فَصَبَرَ.

اضطرارُ إخوةِ يوسفَ إليهِ

جاءَ إخوةُ يوسفَ إليهِ يطلبونَهُ ويسألونَهُ، ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [سورة يوسف:88]، وصاروا بمنزلةِ الذينَ يمدّونَ أيديهِم ليوسفَ -عليهِ السلام- يسألونَه، ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [سورة يوسف:88]؛ إذْ أحوجَهُمُ اللهُ إليهِ لَمّا ظلموهُ فَصبرَ، وجعلَهُم مضطرّينَ إليهِ، فأتوا بالذّلِّ يمدُّونَ أيديهِم، ويقولونَ: تصدَّقْ علينا إنَّ اللهَ يجزي المتصدِّقينَ.

ماذا سيفعلُ بهم؟ هلْ يأخذُ حقَّهُ منْ إخوتِهِ الَّذينَ أصبحوا في تعبٍ من أمرِهِم وضنكٍ منَ العيشِ؟ ألا يَعُدُّ الكثيرَ منّا هذهِ الفرصةَ فرصةَ الدّهرِ والوقتَ المناسبَ للانتقامِ منهم وتلقينِهِم درسًا لنْ ينسوهُ، خاصَّةً أنَّهم في غفلةٍ عنهُ؛ إذْ لمْ يعرفوهُ، بينما عرفَهُم هوَ، وأنَّهم في يدهِ وتحتَ ملكِهِ، وبإمكانِهِ أنْ يفعلَ بهِم ما يشاءُ، وربَّما يَعُدُّهم غنيمةً ساقها اللهُ إليهِ لينتقمَ منهُم كما ظلموهُ؟

كيفيّةُ تعامُلِ يوسفَ معَ إخوتِهِ

لـم يكـنْ يوسـفُ -عليـهِ السّـلامُ- ذلـكَ الانتهـازيَّ والانتقامـيَّ ليُقابِـلَ السّـيِّئةَ بالسّـيِّئةِ، ومـعَ كلِّ مـا حـدثَ وكلِّ مـا عانـاهُ مـنْ تعـبٍ وعسـرٍ، كانَ مثـالًا رائعًـا راقيًـا خلَّـدَهُ القـرآنُ الكريـمُ وضـربَ فيـهِ أحسـنَ القصـصِ ليكـون قـدوةً ودرسًـا لِمَـنْ بعـدَهُ.

يوسـفُ نبـيٌّ، وأخـلاقُ الأنبيـاءِ شـيءٌ آخـرُ، فشـعورُ العفـوِ عنـد هـذا النّبـيِّ الكريـمِ جعلَـهُ يتصـرَّفُ أجمـلَ تصـرّفٍ، ويكرّمُهـم أعظـمَ تكريـمٍ، ولـمْ يُعْلِمْهُـم حتّـى بمعرفتِـهِ إيّاهُـم حتّـى لا يُحرَجـوا أو يخافـوا.

والعجيـبُ أنَّ يوسـفَ -عليـهِ السّـلامُ- لـم يكتـفِ بالإحسـانِ إليهـمْ بعـدمِ معاقبتِهِـم وعـدمِ سـؤالِهِم عمّـا فعلـوهُ بِـهِ، بـلْ زادَ فـي إكرامِهِـم.

ولمّـا أرادَ أنْ يـرى أخـاهُ الشَّـقيقَ -ولـمْ يَكُـنْ معَهـم- أظهـرَ تعجُّبَـهُ مـنْ كثرتِهِـم، وهُـمْ عشـرةُ رجـالٍ، فقالـوا: عنـدَ أبينـا رجـلٌ آخـرُ، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [سورة يوسف:59].

قالَ الشّيخُ السّعديُّ في تفسيرِ هذهِ الآيةِ[1]:

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [سورة يوسف:59].

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أيْ: كالَ لهم كما كانَ يكيلُ لغيرِهِم، وكانَ منْ تدبيرِهِ الحَسَنِ أنَّهُ لا يكيلُ لكلِّ واحِدٍ أكثرَ مِنْ حملِ بعيرٍ، وكانَ قدْ سألهُم عنْ حالِهِم، فأخبروهُ أنَّ لهُم أخًا عند أبيهِم، وهوَ بنيامين، فقالَ لهم: ﴿ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ [سورة يوسف:59]، ثمَّ رغَّبهُم في الإتيانِ بِهِ، فقالَ: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾، وإنْ لمْ يفعلوا فلا كيلَ لَهُم عندَهُ عليهِ السّلامُ، قالَ تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾ [سورة يوسف:60].

وبناءً على هذا، فإنَّهُم -حسبَ ما ظنّوا- سيطلبونَ مِنْ أبيهِم أنْ يصاحِبَهُم أخوهم، وسيأتونَ العامَ المقبلَ برفقتِهِ، وإلّا خسروا الميرةَ ما دامَ هذا الوزيرُ على رأسِ عملِهِ، قالَ تعالى: ﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [سورة يوسف:61].

ونَلْمحُ الإصرارَ في قولِهِم: «وإنَّا لفاعلونَ»؛ لينالوا حظَّتَهُم

1) القرآن الكريم - تيسير الكريم المنان في تفسير القرآن لابن سعدي - تفسير سورة يوسف - الآية 59

السَّنويَّةَ، ولِيَبذلَ بنيامين الجهدَ الَّذي يبذلونَهُ، فَلِمَ يظلُّ مُكرّمًا عندَ أبيهِم دونَهُم؟

لكنّ يوسفَ لنْ يصبرَ على غيابِ أخيهِ بنيامين، فأمرَ فتيانَهُ أنْ يضعوا ثَمَنَ ما أخذَهُ إخوتُهُ في رحالِهِم؛ لكرمِهِ وإحسانِهِ، فَلا يريدُ أن يأخذَ منهُم مالًا لعلمِهِ أنَّهم محتاجونَ، وليكونَ ذلكَ سببًا في عودَتِهِم سريعًا؛ إذْ إنَّهم حينَ يصلونَ ويفتحونَ متاعهُم سيرونَ الثَّمَنَ، ولنْ يَعُدُّوهُ غنيمةً لأنَّهم منْ بيتِ النُّبوَّةِ، بلْ سيعيدوهُ إلى يوسفَ سريعًا، ولنْ يكونَ سفرهُم لإعادةِ الثَّمنِ فقطْ، إنَّما لِيَغتنموا الفرصةَ ويعودوا بميرةٍ جديدةٍ، ولكنَّهُ لنْ يُمدَّهُم بها إلَّا إذا كانَ أخوهُ بنيامين معَهُم، قالَ تعالى: ﴿وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٦٢﴾ [سورة يوسف:62].

وقدْ قالَ الشَّيخُ السَّعديُّ في تفسيرِ هذهِ الآيةِ[2]:

﴿وَقَالَ﴾ يوسفُ ﴿لِفِتۡيَٰنِهِ﴾ الَّذينَ في خدمتِهِ: ﴿ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ﴾، أي: الثّمنَ الَّذي اشتروا بهِ منَ الميرةِ، ﴿فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ﴾، أي: بضاعتَهُم إذا رأوها بعدَ ذلكَ في رحالِهِم، ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾؛ لأجلِ التَّحرُّجِ منْ أخذِها على ما قيلَ.

2) القرآن الكريم - تيسير الكريم المنان في تفسير القرآن لابن سعدي - تفسير سورة يوسف - الآية 62

والظّاهرُ أنَّهُ عليهِ السّلامُ أرادَ أنْ يُرغِّبَهُم في إحسانِهِ إليهِمْ بالكيلِ لهُم كيلًا وافيًا، ثمَّ إعادةِ بضاعتِهِم إليهِم دونَ أن يشعروا. وهكذا سارتِ الخطّةُ، فنرى أبناءَ يعقوبَ يقولونَ لأبيهِم: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٦٣﴾ [سورة يوسف:63]، وزادَ الطّلبُ إصرارًا حينَ فتحوا متاعَهُم ورأوا الثَّمنَ فيها، فقالوا يرغّبون أباهُم: يا أبانا، ما نبغي! هذهِ بضاعتُنا رُدَّتْ إلَيْنا: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ٦٥﴾ [سورة يوسف:65].

يكشفُ يوسفُ لأخيهِ شخصيَّتَهُ سرًّا

جاؤوا بأخيهِم معَهُم في المرّةِ الثّانيةِ كما طلبَ منهُم يوسفُ عليهِ السّلامُ، وما كانَ ما فعلَهُ إلَّا حيلةً بغرضِ ضَمِّ أخيهِ إليهِ. وحتَّى لا يخافَ أخوهُ منْ هذهِ التّهمةِ العظيمةِ، تهمةِ السَّرقةِ، وحتَّى لا يحمِلَ همًّا في نفسِهِ بسببِ هذهِ القضيَّةِ، أعلمَ يوسفُ أخاهُ قبلَ تدبيرِ هذهِ الحيلةِ أنَّهُ أخوهُ، وأنَّهُ هوَ يوسفُ منذُ بدايةِ دخولِهِم عليهِ: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا

﴿كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [سورة يوسف:69]، فَضَمَّهُ إليهِ، واختصَّهُ منْ بينِ إخوتِهِ، وأخبرَهُ بحقيقةِ الحالِ، وقالَ لهُ: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾.

قالَ يوسفُ لأخيهِ: إنّي أنا أخوكَ الَّذي تَنشُدُهُ وتهتفُ باسمِهِ وتتلهَّفُ لرؤيتِهِ، ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾، تقلَّبتْ بي الأيّامُ، ولقيتُ منْ كيدِ إخوانِنا ألوانًا، وتحمَّلتُ منْ غدرِهِم أحزانًا وأسقامًا، وابتليتُ بعدَهُم بمحنةٍ، وأصبتُ بفتنةٍ، ولكنِّي صبرتُ وجاهدتُ حتَّى أبدَلَني اللهُ كما ترى بالنَّعيمِ والغنى والعزِّ، فاكتمْ عنْ إخوَتِكَ الخبرَ، واحجبْ عنهُم هذا السِّرَّ.

طلبَ يوسفُ منْ بنيامين ألَّا يحزنَ أو يقلقَ، وأعلَمَهُ أنَّها حيلةٌ مفتعلةٌ؛ حتّى لا يخيفَهُ أو يرهِبَ شعورَهُ. عندَها قرَّتْ عينُ بنيامين وسكنَتْ أحزانُهُ وانجلى همُّهُ، وغدا يتقلَّبُ في نعيمِ أخيهِ وعزِّهِ، وينعمُ بكرمِهِ وعطفِهِ، فما أجمَلَهُ منْ شعورٍ يحمِلُهُ يوسفُ عليهِ السَّلامُ! وما أعظمَها منْ مشاعرَ؛ إذْ لمْ يرضَ أنْ يخدَشَ مشاعرَ الآخرينَ بأيِّ خدشٍ، فَصَلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِ!

حيلةُ يوسفَ

عـزمَ يوسُـفُ أنْ يضـمَّ أخـاهُ إليـهِ، فَوَضَـعَ السّـقايةَ الَّتـي يكيـلُ بِهـا فـي رحلِـهِ، فلمّـا رحلـوا ﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [سورة يوسف:70]، فَفتَّشـوا فوجَـدوا السّـقايةَ فـي رحلِـهِ ومتاعِـهِ.

وكانَ ذلـكَ لمّـا انقضـتْ أيّـامُ الضِّيافـةِ، وأَجْمعـوا علـى الرّحيـلِ، فأمَـرَ يوسـفُ غلمانَـهُ أنْ يُجهِّزوهـم بجهازِهِـم، وأنْ يدسّـوا السّـقايةَ (أي الصّواعَ، وهـوَ وعـاءٌ جُعـلَ للكيـلِ) في رحـلِ بنيامين، ولمّا أرادوا الخـروجَ فإذا بصوتٍ يناديهِم: أنيخـوا ركائبَكُـم، وأنزلوا متاعَكُـم، فمـا أنتـمْ إلّا سـارقونَ.

دهـشَ الإخـوَةُ وذهلـوا، وأقبلـوا إلـى المنـادي: مـا هـذا الـذي تقـولُ! ومـا هـذه الفريّـةُ الَّتـي ترمينـا بِهـا؟

قـالَ: لقـدْ فُقِـدَتْ صُـواعُ الملـكِ، وإنَّـا لنَشـكُّ أنْ تكونـوا قـدْ سـرقتُموهُ وأخفَيْتُمـوهُ، فارجعـوا عمّـا عزَمْتُـم عليـهِ، ومَـنْ جـاءَ بـهِ لـهُ حمـلُ بعيـرٍ، وأنـا ضامـنٌ لكـمْ بهـذا الشّـرطِ.

عندَها قالَ إخوةُ يوسفَ: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [سورة يوسف:73]، فقالَ لهُم المنادي: فإنْ وجدناهُ عندَكُم؟

قالوا: إنَّ لَنا شرعًا وديـنًا وذمّـةً وعهـدًا، فمَـنْ وجدتُموها في رحلِهِ، فخذوهُ أسيرًا عندَكُم عبدًا لكُم. ذلكَ هوَ شرعُنا، وهذا هوَ عهدُنا، وإنّا على يقينٍ مِنْ براءةِ ذمَّتِنا وطهارةِ أعراقِنا.

طابتْ نفسُ يوسفَ لِهذا العهدِ، واستراحَ لِهذا الرّأيِ؛ إذْ لمْ يكنْ في شرعِ الملكِ في مصرَ ما يجيزُ لهُ أنْ يحجزَ السّارقَ أو يتحكَّمَ فيهِ، ولكنَّ اللهَ مكَّنَ لهُ فيما أرادَ عنْ طواعيةٍ منْ إخوتِهِ، فَبَدأَ يفتّشُ أوعيَتَهُم وعاءً وعاءً، حتَّى انتهى إلى وعاءِ بنيامين، فوَجَدَ السّقايةَ في باطنِهِ، فاستخرَجَها منهُ، وأشهرَها في وجوهِهِم، وذهلوا ودُهِشوا وأطرقوا حياءً وخجلًا.

عندَ ذلكَ قالَ لهُم يوسفُ: عليكمْ بالشّرطِ، فَدَعوا هذا الَّذي وجدْنا عندَهُ الصّواعَ نَتحكَّمْ بِهِ ونأخُذْ حقَّنا منهُ.

حدثَ ما حدثَ، وحاولَ الإخوةُ بكلِّ ما يستطيعونَ أنْ ينفوا عن أخيهِمُ التّهمةَ خَوفًا منْ أبيهِمُ الَّذي وعدوهُ أَلّا يضيعوهُ كما أضاعوا يوسفَ منْ قبلِهِ، ولكنْ هيهاتَ لهُم أنْ ينفوا التّهمةَ وقدْ وَجدوا السّقايةَ في رحلِهِ، فما كانَتْ منهُمْ إلَّا الرّدودُ الانفعاليّةُ والاتّهاماتُ الافترائيّةُ.

﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ

بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾[سورة يوسف:77]، أي ما زالَ القومُ في غيِّهِم مستمرّونَ، وفي سكرتِهِم يعمَهونَ، ولِتُهَمِهِم يرمونَ، هكذا رموا أخاهُم بكلِّ سهولةٍ وجرأةٍ، واتّهموهُ بالسّرقةِ، وكأنَّهم يُثبتونَ ليوسفَ أنَّهُم على السّلوكِ القديمِ نفسِهِ، وأنّ الطَّبعَ الماضي لمْ يتغيّرْ فيهِ شيءٌ، ولمْ يُغيِّروا منْ أنفسِهِم شيئًا.

هكذا كانتْ مشاعرُ القومِ تجاهَ يوسفَ، بقيَتْ كما هيَ، ولكنْ كيفَ كانتْ مشاعرُهُ هوَ؟

تخيَّلْ لو أنَّ منِ اعتدوا عليكَ وظلموكَ وفعلوا بكَ الأفاعيلَ ما زالوا يصرّحونَ لكَ بأنَّكَ تستحقُّ الظّلمَ، وأنَّكَ مجرمٌ وسارقٌ، وهمْ يعلمونَ في قرارةِ أنفسِهِم أنَّ هذهِ التّهمَ ما هيَ إلّا كذبٌ وتلفيقٌ واضحٌ، عندها ماذا ستفعلُ بِهِم يا تُرى؟ وكيفَ ستتصرَّفُ معَهُم؟ ليسألْ كلُّ واحدٍ مِنّا نفسَهُ هذا السّؤالَ، ولكنْ هلْ تعلمونَ كيفَ تصرَّفَ معَهُم صاحبُ الشّعورِ الرّقيقِ والأحاسيسِ المُرْهَفةِ؟

أَسرَّها، ولم يبدِها لهُم، كظَمَ غيظَهُ، وأسرَّ الأمرَ في نفسِهِ، ولمْ يقابِلْ ما قالوهُ بما يكرهونَ، وقالَ في نفسِهِ: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾.

وللعلمِ، قالَ يوسفُ هذهِ العبارةَ: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ في نفسِهِ، ولمْ يجهرْ بِها لهُم، ولمْ يَقلْها في وجوهِهِم، فأيُّ مشاعرَ هذهِ المشاعرُ! وأينَ نحنُ منْ عشرِ معشارِ هذهِ المشاعرِ تجاهَ الآخرينَ؟

لمْ يحبَّ عليهِ السّلامُ أنْ يجرحَ شعورَهُم بشيءٍ معَ أنَّهُم اتَّهموهُ بالسّرقةِ ودبّروا لهُ كلَّ مكرٍ وشرٍّ. إنّهُ حقًّا صالحٌ منَ الصّالحينَ، ومخلصٌ منَ المخلصينَ، ووليٌّ منْ أولياءِ اللهِ المتّقينَ، مدحَهُ اللهُ بمدائحَ كثيرةٍ وعظيمةٍ، فقالَ: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة يوسف:24]، وقالَ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة يوسف:22].

رَحِمَ اللهُ إنسانًا كتمَ كلمةً سيّئةً، مقصودةً أوْ غيرَ مقصودةٍ، عنْ أخيهِ أو أختهِ، أوْ أسلوبًا لمْ يكنْ في محلِّهِ، وتغاضى عنهُ ولَمْ يبدِه لهُ أوْ لها، فكمْ منْ كلماتٍ ومجادلاتٍ ونقاشاتٍ ساخنةٍ كانتْ سببًا في الهجرِ والجفاءِ بينَ الأخوةِ!

معَ كلِّ ما حدثَ، ما كانتْ لِتَفلتَ كلمةٌ سيّئةٌ منْ يوسفَ الكريمِ تُنزِّلُ منْ مستوى نفسِهِ الرّاقيةِ.

تمسّكُ يوسفَ بإبقاءِ أخيهِ عندَهُ

قالوا: أيّها العزيزُ، إنَّ لهُ أبًا شيخًا كبيرًا متعلِّقًا بهِ، قدْ أخذَ علينا عهدًا أنْ نحافظَ عليهِ ونردَّهُ إليهِ، وها نحنُ أولادُهُ عشرةٌ بينَ يديكَ، ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ ۖ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾

[سورة يوسف:79-78].

ولمّا يئسوا منْ قبولِ العزيزِ شفاعَتَهُم، خلصوا إلى أنفسِهِم يتشاورونَ، فقالَ يهوذا: ألمْ تعلموا أنَّ أباكُم أخذَ عليكُم عهدًا أنْ تأتوهُ بأخيكُم، فما نقولُ لهُ اليومَ وها نحنُ قدْ فقدْنا الأخَ وحَنَثْنا باليمينِ؟ إنَّ جُرحَ يوسفَ في كبدِ أبيكُم لمْ يندملْ، وإنَّ دموعَهُ منْ عينيهِ لمْ تنقطعْ، ونحنُ قدْ جنينا في الأولى، وها نحنُ أولادُهُ نجني في الثّانيةِ.

عندها قالَ يوسفُ ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُّمُونِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ

إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ [سورة يوسف:82-80].

زيادةُ همِّ يعقوبَ عليهِ السّلامُ بِفقدِ وَلَدَيْهِ

ذهبَ التِّسعةُ إلى أبيهِم، وخلَّفوا كبيرَهُم يهوذا، فَتَفَقَّدَ الأبُ يعقوبُ بنيامينَ، فلمْ يجدْهُ فيهِم، فكأنَّ طائرًا طارَ منْ قلبِهِ، أو كأنَّ قطعةً انفصلتْ عنْ كبدِهِ، ثمَّ قالَ بصوتٍ حزينٍ: ما صنعتُم بأخيكُم؟ وما فعلتُم بأيمانِكُم؟

فَقَصّوا عليهِ قصصَهُم، وحدَّثوهُ بِحقيقةِ أمرِهِم، فتولَّى عنهُم وقالَ: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ﴾ [سورة يوسف:83]، لقدْ فقدْتُ يوسفَ منْ قبلُ، واليومَ أفقدُ بنيامينَ وأفقدُ يَهوذا ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾ [سورة يوسف:83].

وساوَرَتْ يَعقوبَ الهمومُ، واعْتَرَتْهُ الأحزانُ، وقضَّتْ مضجَعَهُ الكروبُ، ولمْ يَعدْ يجدُ مُتَنَفّسًا لِهمِّهِ، أو سلوةً في ألمِهِ، إلّا ساعَتَيْنِ: ساعةً يفرغُ فيها إلى ربِّهِ يصلّي ويسجدُ ويتعبّدُ ويتهجّدُ، مُستلهِمًا فيها الصّبرَ، مستنجِدًا بالإيمانِ واليقينِ، وساعةً يخلصُ فيها إلى نفسِهِ ويقضي حقَّ الذكرى لِوَلَدَيْهِ،

ثـمَّ يسـتنجدُ بالدّمـعِ ويَسـتروحُ بالبـكاءِ، فَمِـنَ الصّـلاةِ والذّكـرِ كانَ يستلهمُ صبرًا وإيمانًا، ومـنْ ساخِنِ الدّمعِ كانَ يلْقى راحةً واطمئنانًا، وما زالَ يبكي حتّى ابيضَّتْ عيناهُ منَ الحزنِ، وهزلَ جسمُهُ وتضمَّرَ وجهُهُ، ثـمَّ طلـبَ يعقـوبُ عليـهِ السّـلامُ مـنْ أبنائِـهِ البحـثَ عـنْ يوسـفَ وأخيـهِ، غيـرَ يائسـينَ مـنْ رحمـةِ اللـهِ:

﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾

[سـورة يوسـف:87].

قـالَ يعقـوبُ مـا قـالَ وإخـوةُ يوسـفَ يؤيِّدونَـهُ فـي قـرارةِ نفوسِـهِم، ويوافقونَـهُ في سرائرِهِم، فَهُمُ الَّذينَ ألقوا يوسفَ في البئرِ، ولا شيءَ يمنعُ نجاتَهُ بإذنِ اللهِ، ولكـنْ أينَ هوَ بعدَ كلِّ هـذهِ السّـنينِ؟ وأيـنَ يبحثـونَ عنْـهُ؟ كانـوا يعرفـونَ مـكانَ بنيامين، فليذهبـوا إلـى العزيـزِ فـي مصـرَ، وليتوسَّـلوا عنـدَهُ، لعلَّهُـم يرجعـونَ بـهِ إلـى أبيهِـم، فتخـفَّ بعـضُ أحزانِـهِ.

عودةُ إخوةِ يوسفَ وكشفُهُ عنْ نفسِهِ

هبـطَ الإخـوةُ مصـرَ مـرّةً ثالثـةً، وآمالهُـمْ بيـنَ الخيبـةِ والرّجـاءِ، ووَقفـوا بيـنَ يـدَي العزيـزِ ترهقهُـمْ ذلّـةٌ، قائليـنَ: ها قـد رجَّعَتْنا الأيّـامُ إليـكَ، وقـدْ جئنـاكَ بِبضاعـةٍ قليلـةٍ، فالعيـشُ صعـبٌ، فـإنْ شئتَ تصدَّقتَ علَينا، وإنْ أحسنتَ إلينا بعدَ ذلكَ بتسريحِ أخينا، فإنّكَ بذلكَ تكونُ قدْ أرفأتَ لوالدِهِ دمعًا، وخفَّفتَ عنْهُ شيئًا من أحزانِهِ.

ما كانَ منْ يوسفَ -عليهِ السّلامُ- هُنا إلّا أنْ يعلنَ لإخوتِهِ عنْ نفسِهِ، ويكشفَ لهُم عنْ حالِهِ، وأن يصفحَ بكرمِهِ عنْ إساءتِهِم، ليُريَهُمُ الصَّفحَ والكرمَ والعفوَ والغفرانَ.

ذكّرهُم يوسفُ بما حدثَ معَهُ بسببِهِم في صغرِهِ قائلًا: ﴿قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ٨٩﴾ [سورة يوسف:89]، وكيفَ وسوسَ لهُمُ الشّيطانُ أن يكيدوا لهُ ولأخيهِ؛ إذْ ألقوهُ في البئرِ، ولمْ ينفعْهُ توسُّلُهُ ودموعُهُ في أنْ يجدَ رحمةً في قلوبِهِم، فألقوهُ وحيدًا ضعيفًا، ليقدِّرَ اللهُ فيهِ ما يشاءُ، وتصنَّعوا معَ أخيهِ صنوفَ الكيدِ والإيذاءِ.

لمّا أخبَرَ يوسفُ إخوتَهُ بأمرِهِ، وعرَّفَهُم بنفسِهِ، تغيَّرتْ ألوانُ وجوهِهِمْ، واضطربَتْ مشاعرُهُم، وتلجلجوا في الحديثِ، وتَمنّوا -كما يقالُ- لو انشقَّتِ الأرضُ وابتلعَتْهُم، ولكنَّ يوسفَ -عليهِ السّلامُ- كانَ أكرمَ نفسًا منْ أنْ يطيلَ خوفَهُم واضطرابَهُم، وأوسعَ صدرًا منْ أنْ يجازيهِم على إساءَتِهِم، فَهُمْ مَهما فعلوا منْ كيدٍ ومكرٍ، يبقونَ إخوَتَهُ.

وفي قولِهِ تعالى: ﴿قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾ قالَ عنهُم «جاهلونَ»، ولمْ يقلْ ظالمونَ معَ أنَّهُم ظلموا، ولا فاسدونَ أو مجرمونَ، بلْ هيَ كلمةٌ اختارَها بعنايةٍ كيْ يحافظَ على حبلِ الودِّ بينَهُم في خضمِّ

الصّراحةِ المُرَّةِ الّتي تكشفُ ما طَوَتْهُ السّنونُ، وربَّما طواهُ نسيانُهُم ولكنْ لمْ تُطوِهِ ذاكرتُهُ!

بانَ السّرُّ وانكشفَ، وعرفَ إخوانُ يوسفَ أنَّ مَنْ يخاطبونَهُ ويَتردَّدونَ عليهِ هوَ يوسفُ، إلّا أنَّ الشّكَّ في أمرِهِ قدْ تخالجَهُم، وداخَلَهُم الرّيبُ في حقيقةِ حالِهِ بدايةً، فَوَجدوا أنّهُ يذكرُ أشياءَ وقعَتْ، فَمَنْ أعلَمَهُ بِها؟ لا يعرفُ ما يذكرُهُ أحدٌ مِنَ النّاسِ حتّى أخوهُ بنيامين، أمورٌ لا يعرفُها إلّا يوسفُ، فأخذوا يتوسّمونَهُ، عندَ ذلكَ صاحَ واحدٌ منهُم يقولُ: ﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾، فأجابَ سريعًا، وأشارَ إلى بنيامين: نعمْ ﴿ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [سورة يوسف:90].

عندما قالوا لهُ: ﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ﴾، ماذا قالَ لهُم؟ وبماذا أجابَهُم؟ ﴿ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ﴾، لمْ يقلْ لهُم تأدَّبوا معي، وأنزلوني منزلَتي، أنا الملكُ يوسفُ، أو الرّئيسُ يوسفُ، أو يوسفُ اليومِ ليسَ يوسفَ الأمسِ، ولمْ يجرحْ مشاعرَهُم، فما كانَ منهُم إلّا إظهارُ التّأسُّفِ، وإبداءُ الاعتذارِ ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾﴾ [سورة يوسف:91]، فاعترَفُوا لهُ اعترافًا صريحًا بكلِّ ما بدرَ منهُم تجاهَهُ، وأقرّوا لهُ أنَّ ما فعلوهُ ضِدَّهُ كانَ خطأً محضًا.

عفوُ يوسفَ عنْ إخوَتِهِ

كيفَ كانَ ردُّ يوسفَ عليهِ السّلامُ؟ فيا ترى هلْ فتحَ ملفَّ القضيّةِ بناءً على اعترافاتِهِم؟ هلْ ذكّرَهُم بتاريخِهِمُ الأسودِ وقصَصِهِم المأساويّةِ الّتي ارتكبوها في حقِّهِ؟ هلْ قالَ لهُم اليومَ يومُ حسابِكُم على كلِّ ما ارتكبتُمُوهُ منْ جرائمَ وأفعالٍ شنيعةٍ أقررتُم بها ضدّي؟

لمْ يدعهُم يوسفُ -عليهِ السّلامُ- مستمرّينَ في التّوسّلِ والطّلبِ وذرفِ الدّموعِ على ما بدرَ منهُم، وإنّما عاجَلَهُم بقولِهِ: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [سورة يوسف:92].

سامَحَهُم مباشرةً، وعفا عنهُم، ولمْ يقلْ لَهُم أنتمْ فعلتُمْ بي وفعلْتُمْ ولكنْ أنا اليومَ أسامِحُكُم وأعفو عنكُم، لمْ يذكِّرْهُم بشَيءٍ منْ ذلكَ كلِّهِ، بلْ قالَ لَهُم حينَها: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، وكأنَّهُم لمْ يفعلوا شيئًا، ولمْ يكتفِ بمسامحَتِهِم والعفوِ عنهُم، وإنَّما دعا اللهَ -سبحانَهُ وتعالى- أنْ يعفوَ عنهُم، وأنْ يغفرَ لَهُم زلّاتِهِم، وألّا يؤاخذَهُم بِما فعلوهُ في حقِّهِ، فلا توبيخَ ولا زجرَ ولا تعنيفَ ولا عقوبةَ، ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾، ثمَّ دعا لإخوَتِهِ: ﴿الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

هـذا عفـوُ نبـيٍّ لا يتأتّـى لأيِّ أحـدٍ بعـدَ كلِّ هـذهِ المعانـاةِ، وبعـدَ أنْ صـارَ بإمكانِـهِ أنْ يبطـشَ بهِـم، وأصبـحَ لديـهِ مـنَ القـوّةِ مـا يسـتطيعُ أنْ يـردَّ بهـا الصـاعَ صاعيـنِ، والمعاقبـةُ جائـزةٌ شـرعًا، لكنَّـهُ صفـحَ وعفـا عنهُـم.

وصولُ أبوَيْهِ إلى مصرَ وتحقُّقُ رؤياهُ

إكمـالًا لهـذهِ القصّـةِ المؤثِّـرةِ جـدًّا، عندمـا عفـا يوسـفُ -عليـهِ السّـلامُ- عـنْ إخوتِـهِ، طلـبَ منهُـم إحضـارَ والِـدِهِ إليـهِ. فـي تلـكَ الأثنـاءِ، كانَ يعقـوبُ -عليـهِ السّـلامُ- فـي أشـدِّ حزنِـهِ بعـدَ كلِّ هـذهِ السّـنينِ مـنَ الحـزنِ وكبـرِ السِّـنِّ والآلامِ، وأشـدُّها آلامُ فـراقِ يوسـفَ ومِـنْ بعـدِهِ أخيـهِ بنيامين. ذهـبَ يعقـوبُ إلـى مصـلاهُ يومًـا، فصلَّـى وذكَـرَ اللـهَ ثـمَّ بكـى مـا شـاءَ اللـهُ أنْ يبكـيَ، وفجـأةً دخـلَ إلـى نفسِـهِ شـعورٌ غريـبٌ، فقـدْ شـعَرَ بانشـراحٍ فـي أعمـاقِ نفسِـهِ، فقـالَ بمـلءِ قلبِـهِ وجوارحِـهِ: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾[سورة يوسف:94]، ومـا كانَ يعقـوبُ مخطِئًـا فـي إحساسِـهِ، فقـدْ وصلَـتِ القافلـةُ مـنْ مصـرَ تحمـلُ قميـصَ يوسـفَ الّـذي يحمـلُ البُشـرى ويـردُّ إلـى يعقـوبَ نعمـةَ البصـرِ والحيـاةِ بقـدرةِ اللـهِ تعالـى.

قطعـتِ العيـرُ طريقَهـا، وجـاءَ البشـيرُ فألقـى القميـصَ علـى وجـهِ يعقـوبَ، فـإذا بصـرُهُ قـدْ عـادَ، ورشـدُهُ قـدْ ثـابَ، وقصّـوا عليـهِ

قصَّتَهُم، وحدَّثوهُ بِما كانَ منْ أمرِهِم، ثمَّ طلبوا إليهِ المغفرةَ والرّضوانَ، فقالَ يعقوبُ: لستُ أملكُ منْ أمرِكُم شيئًا، ولكنّي أستغفرُ لكُم ربّي، إنَّهُ هوَ الغفورُ الرّحيمُ. أعدّوا إبلكُم للسَّفرِ إلى مصرَ، وهيّا بِنا إلى ساحةِ العزيزِ.

وصلوا إلى مصرَ، إلى يوسفَ، وقالَ اللهُ تعالى في ذلكَ: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾[سورة يوسف:100-99].

وَعنى بأبوَيْهِ هُنا والدَهُ وخالَتَهُ زوجَةَ أبيهِ؛ لأنَّ والدتَهُ راحيلُ توفيَتْ وهيَ نفساءُ بأخيهِ بنيامين كما تذكرُ كتبُ التّاريخِ.

عجيبةٌ واللهِ هذهِ المشاعرُ الّتي يحملُها سيّدُنا يوسفُ -عليهِ السّلامُ- في نفسِهِ، مشاعرُ لا تكادُ توصَفُ. تأمَّلوا في هذهِ الآيةِ لتستخرجوا أسرارَ مشاعرِ هذا النّبيّ الكريمِ، المسامحِ الرّحيمِ، الّذي يأخذُ بالعفوِ، ويأمرُ بالعرفِ، يخاطبُ إخوَتَهُ فيقولُ لهُم إنَّ اللهَ أحسَنَ إليهِ وأخرجَهُ منَ السّجنِ، ولمْ يذكرْ لهُم الخروجَ

منَ الحفرةِ عندما رموهُ فيها، واكتفى بذكرِ نعمةِ الخروجِ منَ السّجنِ الَّتي لا علاقةَ مباشرةً لهُم فيها، وأغفلَ نعمةَ الخروجِ منَ البئرِ الّتي كانوا سببًا فيها، فلمْ يَذكُرْها لهُم حتّى لا يجرحَ مشاعِرَهُم أوْ يذكِّرَهُم بأعمالِهِم الخبيثةِ وأفعالِهِم الشّرّيرةِ، ومنْ كمالِ العفوِ وقمّةِ المسامحةِ ألّا تُذكّرَ خصمَكَ بماضيهِ إذا سامحتَهُ وعفوْتَ عنْهُ.

ليسَ هذا فحسبُ، وإنَّما جاءَ بهِم منْ حياةِ البداوَةِ والفقرِ والضّنكِ إلى حياةِ المدينةِ والحضارةِ والتّقدّمِ، إحسانًا إليهِمْ وإكرامًا لمشاعِرِهِم، ولو كانَ الواحدُ منّا في هذا الموقفِ لَما فكّرَ أصلًا في رفعتِهِم وإعلائِهِم والارتقاءِ بِهِم إلى الحياةِ الأفضلِ، والعيشِ الهنيءِ الأكملِ، بلْ سنجدُ أنَّ الجيّدَ بينَنا مَنْ يسامِحُ ويتنازَلُ، أمَّا أنْ يقدِّمَ لهُم ما هوَ أعلى منَ المسامحةِ والعفوِ، وهوَ الرّفعةُ والرّقيُّ بِهِم، فهذا نادرٌ وخيالٌ، إلّا لِمَنْ كانَ يحملُ مشاعرَ مثلَ مشاعرِ يوسفَ عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ.

هلِ انتهَتْ مشاعرُ يوسفَ هُنا؟ لا لمْ تنتهِ بعدُ، اسمعوهُ يخاطبُ والدَيْهِ بخطابٍ رقيقٍ، وأسلوبٍ عالٍ أنيقٍ، فيقولُ لهُم: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ [سورة يوسف:100].

يا اللهِ! أيُّ مشاعرَ خلقتَها في هذا الرّجلِ العجيبِ؟ حقًّا إنّهُ نبيٌّ، ابنُ نبيٍّ، ابنُ نبيٍّ، ابنُ نبيٍّ، يقولُ إنَّ ما حصلَ بينَهُ وبينَ

إخوَتِهِ إنَّما هوَ نزغٌ منَ الشّيطانِ، وكأنّهُ يقولُ لإخوَتِهِ لا علاقةَ لكُم بما حصلَ، ولستمْ أنتمُ السّببَ في كلِّ هذهِ المشكلاتِ الّتي حدثتْ، وإنّما هوَ الشّيطانُ، فَحَمّلها إبليسَ، أساسَ الشّرِّ ومصدَرَ البلايا، حتّى لا يؤلِمَ إخوانَهُ بفكرةِ أنَّهُم همْ مَنْ تَسبَّبوا في كلِّ ما تعرَّضَ لهُ منْ ظلمٍ وإهاناتٍ، كما لو أنَّها تبرئةٌ لهُم معَ أنَّهم مخطئونَ، وإلقاءُ كاملِ اللّومِ والخطأِ على الشّيطانِ الرّجيمِ، وَهُنا أتوقَّفُ عنْ التّعليقِ، ولا أستطيعُ أنْ أعبِّرَ لكُم عنْ هذهِ المشاعرِ الرّقيقةِ، وأتركُ لخيالِكُم أنْ يتصوَّرَ عظمتَهَا، وعظمَةَ نبيِّ اللهِ يوسفَ بنِ يعقوبَ، بنِ إسحاقَ، بنِ إبراهيمَ، عليهِم وعلى نبيِّنا أفضلُ الصَّلاةِ وأزكى التّسليمِ.

إنَّها مشاعرُ تجاهَ الآخرينَ يعجزُ اللّسانُ عنْ تصويرِها، ويعجزُ القلمُ عنْ تسطيرِها، وتطربُ الآذانُ لسماعِها، وترتاحُ القلوبُ لروايَتِها، وتجدُ النّفوسُ بَونًا شاسعًا وفرقًا واسعًا بينَها وبينَ مشاعِرِنا.

رحمَ اللهُ نفسًا صفحتْ عنْ أخطاءِ الآخرينَ بحقِّها حُبًّا بالعفوِ، وحفظًا للمودَّةِ والعلاقاتِ الجميلةِ، وتسامَتْ عنْ حظوظِ النّفسِ وزينةِ الشّيطانِ، فارتقَتْ في مدارجِ السّموِّ والنّبلِ.

كانتْ قصَّةُ يوسفَ في العفوِ درسًا بينَ المتخاصمينَ لِطَيِّ صفحةِ الماضي الّتي لا تصلُ في أغلبِ الأحيانِ إلى شيءٍ ممّا حدثَ ليوسفَ -عليهِ السّلامُ- بسببِ إخوَتِهِ، فهلْ نعي هذا

الـدّرسَ ونتغاضى عـن هفـواتِ بَعضِنا لأجـلِ الـودّ الّـذي يجمَعُنا؟

علينـا أنْ نسـتلهِمَ مـنْ هـذهِ القصَّـةِ معانـيَ التّعامـلِ الرّاقـي والحكيـمِ معَ إخوانِنا فـي شتّى المواقـفِ، ومـعَ كلِّ مَـنْ نتعامـلُ معَهـم، فـإنْ ظُلِـمَ إنسـانٌ مـا وأرادَ أنْ ينتقـمَ، يُذكَّـر بقصّـةِ يوسفَ، ولذلـكَ لمّا أرادَ أميرٌ مـنَ الأمـراءِ أنْ ينتقـمَ مـنْ أشخاصٍ، دخـلَ عليـهِ الحسـنُ البصـريُّ فوعَظَـهُ، وذكَـرَ لـهُ قِصَّـةَ يوسـفَ عليـهِ السّـلامُ، ومـا صنَـعَ بِـهِ إخوَتُـهُ مِـنْ طرحِهِـم لَـهُ فـي الجـبِّ، وبيعهِـم إيّـاهُ، وذَكَـرَ مـا لقـيَ مـنْ كيـدِ النّسـاءِ ومـنَ الحبـسِ، ثـمَّ قـالَ: أيُّها الأميـرُ، مـاذا صنـعَ اللـهُ بِـهِ؟ نصـرَهُ عليهِـم، ورفـعَ ذكـرَهُ، وأعلـى كلمتَـهُ، وجعلَـهُ علـى خزائـنِ الأرضِ، ومـا كانَ مـنْ يوسـفَ -عليـهِ السّـلامُ- إلّا أنْ حمـدَ اللـهَ وشـكَرَهُ، فقـالَ عليـهِ السّـلامُ داعيًـا اللـهَ عـزَّ وجـلَّ: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [سورة يوسف:101].

ثـمَّ امتـنَّ اللـهُ -عـزَّ وجـلَّ- علـى رسـولِهِ محمّـدٍ -صلّـى اللـهُ عليـهِ وسـلَّمَ- بعـدَ أنْ قـصَّ عليـهِ كلَّ أحـداثِ هـذهِ القصّـةِ، فقـالَ لَـهُ: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [سـورة يوسـف:102]، ثـمَّ يختـمُ اللـهُ -عـزَّ

وجلَّ- السّورةَ الكريمةَ بقولِهِ: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [سورة يوسف:111].

ها نحنُ نختمُ الحديثَ عنْ قصّةِ نبيِّ اللهِ يوسفَ -عليهِ السّلامُ- على أملِ أنْ نكونَ قدْ أعطينا فكرةً عنها للعبرةِ والعظةِ. اقرؤوها، فإنَّ قراءَتَها وتدبّرَ معانيها وقراءةَ تفسيرِها أعظمُ ممّا ذكرْنا، اقرؤوها معَ كلِّ ما جاءَ في كتابِ اللهِ، واهتمّوا أشدَّ الاهتمامِ بسنّةِ المصطفى صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ.

- **مثالٌ على إخوةٍ جاهلينَ وإخوةٍ متآزرينَ:**

ذكرَ اللهُ في القرآنِ الكريمِ نموذجًا لإخوَةٍ متآزرينَ ومتحابّينَ، مثلَ موسى عليهِ السّلامُ وهارونَ عليهِ السّلامُ، إخوَةٌ جمَعَهُم الإيمانُ والعملُ الصّالحُ والتَّوكُّلُ على اللهِ والدّعوةُ إليهِ.

ومنْ أكبرِ فضائلِ موسى وإحسانِهِ، ونصحِهِ لأخيهِ هارونَ، أنَّهُ سألَ ربَّهُ أنْ يشرِكَهُ في أمرِهِ، وأنْ يجعلَهُ رسولًا مثلَهُ، فاستجابَ اللهُ لهُ ذلكَ، ووهبَ لهُ منْ رحمتِهِ أخاهُ هارونَ نبيًّا، إذْ قالَ تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ ﴾ [سورة مريم:53]،

فنبـوّةُ هـارونَ تابعـةٌ لنبـوّةِ موسـى عليهِمـا السّـلامُ، فسـاعدَهُ على أمـرِهِ، وأعانَـهُ عليـهِ3.

وعلـى لسـانِ سـيّدنا موسـى عليـهِ السّـلامُ: ﴿ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١﴾[سـورة طـه:31-29]، أي اجعـلْ لـي وزيـرًا مُعينًـا وظهيـرًا مـنْ أهلـي، والوزيـرُ مَـنْ يـؤازرُكَ ويعينُـكَ ويتحمَّـلُ عنـكَ بعـضَ ثِقَـلِ عَملِـكَ4.

وعندَما طلـبَ المغفـرةَ مـنَ اللـهِ قـالَ: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي﴾ [سـورة الأعـراف:151]، فـأيُّ نعمـةٍ هـذهِ الَّتـي تركناهـا وفيهـا رحمـةٌ لقلوبِنـا وصدقـةٌ لنفوسِـنا وبركـةٌ لأعمارِنـا وأرزاقِنـا!

لكـنْ ليـسَ كلُّ الإخـوةِ كموسـى وهـارونَ، فهنـاكَ إخـوةٌ يُوسـفَ عليـهِ السّـلامُ، ومـنْ أبـرزِ صفاتِهِـم صفـةُ الحسـدِ، وصفـةُ الحقـدِ، وصفـةُ الكـذبِ؛ إذْ إنَّهُـم حسـدوا يوسـفَ وغضبـوا مـنْ محبّـةِ والِـدِهِ سـيّدِنا يعقـوبَ -عليـهِ السّـلامُ- لَـهُ ولأخيـهِ أكثـرَ منهُـم وهـمُ الجماعـةُ؛ فهُـمْ أحـقُّ بهـذا الحـبِّ منهمـا فـي نظرِهِـم، فحقـدوا عليـهِ وكادوا لـهُ كيـدًا عظيمًـا؛ ليتخلَّصـوا منـهُ وينفـردوا بمحبّـةِ أبيهـم.

3) تفسير الشيخ السعدي رحمه الله، كتاب تيسير الكريم الرحمن - مريم 53

4) تفسير سورة طه الآية 29 تفسير البغوي

قدْ ينتجُ أذى الإخوانِ عنْ خصامٍ دنيويٍّ فانٍ، أو قدْ يكونُ على ورثٍ أو سيطرةٍ، أو لأجلِ إرضاءِ كِبَرِ نفسٍ أو حسدٍ أو غضبٍ، فيقفلُ المؤذي بذلكَ بابَ الجنّةِ في وجهِهِ، فإذْ بِهِ في خسرانٍ مبينٍ.

فجديرٌ بنا أنْ نحرصَ على توثيقِ هذهِ الرّابطةِ السّاميةِ في زمنٍ أصبَحَتْ فيهِ العلاقاتُ الأسريّةُ والإنسانيّةُ مهزوزةً، هشّةً، كلُّ نائبةٍ تكسرُ زاويةً فيها.

وبالعودةِ إلى قصّةِ سيِّدِنا موسى، قالَ تعالى في سورةِ مريمَ: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ ﴾[سورة مريم:53]، فلنتأمَّلْ عبارةَ (منْ رحمتِنا) لندركَ أنَّ الإخوةَ رحمةٌ منْ رحماتِ اللهِ؛ فكونوا كيوسفَ معَ إخوتِكُم الجاهلينَ، وتآزروا مثلَ موسى وهارونَ.

اللَّهمَّ اغفرْ لنا ولوالدينا، وارحمْهُم كما ربّونا صغارًا، اللَّهمَّ أحسِنْ إلَيْهِم كما أحسَنوا إلينا، اللَّهمَّ أحسِنْ عاقبَتَنا في الأمورِ كلِّها، وأجِرْنا منْ خزيِ الدُّنيا ومنْ عذابِ الآخرةِ، واحفَظْنا بما تحفظُ بِهِ عبادَكَ الصّالحينَ.

المراجع:

1. يوسف الكريم وتقدير الشعور - ملتقى الخطباء - الفريق العلمي.
2. لطف الله تعالى - الشيخ د. إبراهيم بن محمد الحقيل.
3. قصة يوسف عليه السلام وتحقيق الرؤيا - الشيخ مسفر بن سعيد بن محمد الزهراني.
4. دراسة تربوية لسورة يوسف عليه السلام - الدكتور عثمان قدري مكانسي.
5. العفو والاعتذار بين الإخوة - الشيخ محمد صالح المنجد.
6. يوسف وإخوته - بدر الجابري.